عدنان النحوي في ملحمته :

درة الأقصى

بقلم / د.جابر قميحة
مصر

الشاعر السعودي الدكتور عدنان علي رضا النحوي علم من أعلام رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وهو - أطال الله في عمره - مفكر ذو عقلية موسوعية، وله ما لا يقل عن سبعين مؤلفاً في المنهج الإسلامي، وفقه الدعوة، والسياسة الإسلامية، والأدب الإسلامي، والنقد الأدبي..

كما أن له عدداً من الدواوين الشعرية، منها: ديوان الأرض المباركة، ديوان موكب النور، ديوان جراح على الدرب، وله عدد من الملاحم مثل: ملحمة فلسطين، وملحمة الأقصى، وملحمة الجهاد الأفغاني، وملحمة البوسنة والهرسك، وآخرها صدوراً «درة الأقصى».

***

والذين عرَّفوا الملحمة عرَّفوها ونصب عيونهم «الإلياذة» و«الأوديسة». الملحمة في نظرهم عمل شعري قصصي طويل يدور حول بطولة خارقة، وأحداث تخيلية، تتجاوز حدود العقل والنظر، وتؤدى بأسلوب جليل.

ويرى بعض النقاد أن المطولات الشعرية الملحمية هي البديل الحاضر «للملحمة» بمفهومها الهوميري الذي أشرنا إليه، والبطولة في الملحمات التي نظمها الدكتور النحوي «بطولة حقيقية» فهي - إن لم تتجاوز حدود العقل - تجاوزت حدود العادة السائدة، والعرف السائر، وهذا المفهوم يعطيها صفة العظمة والجلال.

كما أن الحدث فيها حدث ممتد يتسع لاستيعاب كثير جداً من معطيات الفكر والشعور، وفي ملحميات النحوي انطلاقات من البسيط إلى العميق، ومن الخاص إلى العام الشامل دون أن يحس المتلقي بصدمة انتقال أو افتعال، وأغلبها - إن لم تكن كلها - يسري في أعطافه شعور يمتزج فيه الحزن بالأمل، وهو حزن لا يهبط إلى درك اليأس والإحباط، كما أن الأمل لا يحلق في آفاق الأساطير «واليوتوبيات».

***

ومن فضول القول أن نقرر هاهنا أن الشاعر المسلم غير مطالب بأن تكون ملحمياته على النسق الهوميري في «الإلياذة» و«الأوديسة»، بل من حقه - إن لم يكن من الواجب عليه - أن يتخذ أو يبدع - من الأشكال الفنية ما يراه مناسباً، أو غير مصطدم مع عقيدته الدينية، وقيمه الخلقية من ناحية، وما ينبض بالقيم والمعطيات الجمالية من ناحية أخرى.

وقد سلك الدكتور النحوي هذا النهج في ملحمياته، ونرى فيها أن نسيجها الموضوعي تتلاحم فيه خيوط التاريخ بخيوط العقيدة، والقيم الدينية والإنسانية بالقيم الشعورية والتوهجات النفسية، مما يبرئ هذه الطروحات الملحمية من اتهام قد يخطر على الذهن وهو أنها «شعر تاريخي».

***

وآخر طروحات النحوي «درة الأقصى» وهي مطولة ملحمية من ١١٩ بيتاً على بحر «الخفيف» وروي «الدال»، وهي تتحدث عن استشهاد «محمد الدرة» الطفل الذي كان يسير مع أبيه جمال الدرة قرب مستوطنة نتساريم جنوب غزة، وذلك يوم السبت ٣ من رجب ١٤٢١هـ (٢٠٠٠/٩/٣٠)، فانهال عليهما الرصاص كالمطر، فاحتميا بحائط أسمنتي، واحتمى الطفل بجسد أبيه دون جدوى، واستشهد في حضن أبيه، وأصيب الأب في بطنه وساقه بعدة رصاصات جعلته فاقد القدرة، عاجز الحركة، وتفاصيل المأساة معروفة على مستوى العالم كله.

«درة الأقصى» عنوان هذه المطولة بنيله الشهادة تجاوز رابطة الدم التي تربطه بأهله - أبا، وأما،

أعماماً، وأخوالاً - إذ اكتسب باستشهاده «نسبا جديدا» فهو يضاف إلى «الأقصى» الذي بارك الله حوله، والذي انتهى عنده «مسرى» النبي صلى الله عليه وسلم، وانطلق منه إلى معراجه في السماوات العلا.

وإيحاء ثان: بالنفاسة والصفاء، والبراءة، والعبق الديني القدسي.

وإيحاء ثالث إلى أصحاب الحق، بأن يكون كل منهم درة، حتى تتعدد «الدرر» ويتألق سجل التاريخ بما يعكسه من نور وجلال.

وجاء مضمون هذه «المطولة» ليرسخ ويقوّي من هذه الإيحاءات الثلاثة ويجعل منها حقيقة نفسية لا يعتورها شك.

***

يستهل الشاعر مطولته بالمشهد المكروب، مشهد الطفل البريء الذي يحتمي بأبيه في قالب حواري، فالطفل المفزوع يتحدث إلى أبيه قائلاً:

ضمني يا أبي إليك فإن
خائف، والرصاص حولي شديد
ضمني واحمني فما زال
ينصب علينا رصاصهم ويزيد

في البيتين السابقين تتجسد أمامنا براءة الطفولة وطهرها وعفويتها، ولكن الشاعر لم يلتزم بهذا المنطق الطفولي، فأخذته حماسته ليأخذ مكان «الدرة» بعقليته السياسية الواعية، ونضوجه الفكري القوي، فنحس أن صوت الشاعر - لا هو الغالب فحسب - ولكن هو الوحيد المنفرد:

ضمني ضمني ولستُ جبانا
إن عزمي كما علمت حديد
أنا من أمة بناها رسول الله
والوحي والكتاب المجيد
غير أن الهوان رعب ففيه
نذر ولولت وفيه وعيد
أي هول أراه ثار وهذي
الأرض من حولنا تكاد تميد
لا تلمني أبي فألف سؤال
في فؤادي يتيه فيها الرشيد
لا تخف يا بني، صبرا فإن
الله يقضي من أمره ما يريد
إنه الله وحده ملجأ الخا
ئف يأوي إلى حماه الشريد

ويصرخ الطفل - أعني الشاعر على لسان الطفل - موجها نقده المرّ إلى العرب والمسلمين:

قلت لي يا أبي: ملايين هم في الـ
ـأرض، نحن المليار أو قد نزيد
هل يرانا الأرحام في الأرض؟ هل
هب أبي أو مشفق أو نجيد؟
أين إخواننا؟ وأين بنو العم؟
وأين الأخوال؟ أين الجدود؟

والحوار السابق - ولا شك - ذو مضمون فكري وإنساني قيم، وهي قيمة أعلى بكثير من قيمته الفنية.

والتناسب بين الحوار والمستوى العقلي والنفسي لهذا الطفل الصغير المفزوع يكاد يكون مفقوداً، كما ذكرنا آنفا، وحسناً فعل الشاعر إذ عوض عن هذا المأخذ بعرض مشهد المأساة في براعة، وفنية راقية، موظفاً «الصوت» و«الحركة» في مصداقية رائعة، بحيث يبدو المشهد حيا متجدداً كأن المتلقي يراه رأي العين، بل يعيشه بكل مراحله المتعاقبة اللاهثة، ويتعانق الصوت الصاخ المدوي مع الحركة المتدافعة، وهي في مجموعها حركات غرزية، لا مكان «للترتيب الفكري» فيها، فرقعة الزمن أضيق من أن تتسع للفكر، وإعمال العقل.

وتوالى الرصاص والموتُ دفا
ق ودوّى نداؤه المفؤود
شده خلف ظهره واستغاثت
أضلع أو حناجر أو زنود
«يا أبي .. يا..» وغاب منه نداء
وطوته عنا فياف وبيد
أسكنته رصاصة، ورماه
في ذراعي أبيه سهم حقود
ضمه ضمة المودع والدمـ ـع
لهيب على الهوان شهيد
أسكتته رصاصة ثم أخرى
وطوى صوته النديّ حدود
رجعته كل الروابي دويا
وصداه على الزمان جديد

ومع عاطفة الأبوة المفجوعة يكتسب المشهد روحاً درامية حزينة حارة، وذلك في أبيات من أرقى ما نظم الشاعر، ومنها:

ضمه ضمة إلى الصدر يسـ
ـكب فيها حنانه ويجودُ
الحنان الندي، والأمل الضا
ئع تيه أمامه ممدود
كل مساح مع الفسيح خلاء
كل درب أمامه مسدود
أفرغ الذوق فوقه فجَرَتْ
بالشوق منه دماؤه والورود

***

ويبقى المنظر الأخير من المشهد الدامي في الأبيات الآتية:

د.عدنان النحوي

وابل صب فوقه فتهاوى
رمق لم يزل لديه يجود
مال للخلف وارتخى ساعداه
وارتخى منه عزمه المشهود
همّ لو يستطيع ضم فتاه
ودم فائر، وشوق شديد
أفلت الطفل من يديه فضمته
قلوب وفية وكبود
بين جنبيه خفقة المجد والتا
ريخ عادت طيوفه والجدود

***

وكان من الطبيعي أمام هذه المأساة أن يهزنا الشاعر ببكائية رثائية دامية، فيها من الحزن الدفاق قدر ما فيها من إدانة المجرمين الذين سقطت مروءتهم في الوحل، ولم يرحموا البراءة والخوف والرجاء والعهود، وتكون الإدانة أصرخ وأدمى حينما تنطلق من الأمهات الثكالى، والآباء المفجوعين:

يا حنو الآباء، يا لهفة الأم
تنادي أين الأباة الصيد؟

ثم تشف البكائية فتعزف روح الأبوة في الشاعر على أوتار الوجدان بأبيات تذكرنا بخالدة أبي العلاء المعري في رثاء الفقيه الحنفي، وهي أيضا دالية على البحر الخفيف، وتذكرنا كذلك بدالية ابن الرومي في رثاء ابنه، ومقال إبراهيم عبدالقادر المازني في رثاء الطفلة، يقول عدنان النحوي:

انثروا فوقه الرياحين والور
د فتزكو على دماه الورود
وأحيطوا جثمانه بحنان..
طاب منه حنانه المعهود
واسكبوا فوقه الندي من الطيـ
ـب فكم فاح طيبه والعود
وانسجوا من دمائه حلل المجـ
ـد عليها لآلئ وعقود
أنزلوه على الأكف لروض
رفّ فيه الندى؛ فهذا الشهيد

وتتسع دائرة الحزن لأن «الدرة» لم يعد مجرد طفل قتيل، بل رمزاً للطفولة المغتالة، والطهر الذبيح، وسرعان ما يستعيد الشاعر تماسكه، وتتسلل إليه روح الأمل، وهو يرى صوراً من البطولات شهداء على الدرب الذي هوى فيه محمد الدرة شهيداً، ويوجه نداءه إلى المؤمنين:

أيها المؤمنون قوموا إلى السا
ح إلى حوله بناك وجدوا
واصمدوا واصبروا فإن حياة النـ
ـاس في الساح وثبة وصمود

ويوجه بعدها نداءه إلى الأطفال قبيل الانطلاق (الأبيات من ٦٣ إلى ٧٤).

***

ويقودنا الشاعر بعد هذه المسيرة الباكية إلى الوعي الجرح.. إلى فلسطين المنهومة.. وبأسلوب استفهامي استنكاري تتوالى أسئلته، ملتفتاً إليها: كيف اختال في رباها جبان ومجرم رعديد؟ ونفايات من اليهود وموالـيهم؟ ولكنه لا ينسى أن يؤكد حقيقتين:

الأولى: أن اليهود ما كانوا ليستطيعوا أن ينهبوا الأرض إلا في غيبة الوجود للقوى العربية.

والثانية: أن مصير العدوان الاندحار والهزيمة والهلاك، هي سنة من سنن الله الأزلية يجب على اليهود أن يتذكروها ويعوها:

هذه عصبة اليهود فسلهم
أين عاد إذا دروا وثمود؟

***

وبقلب المحب ولسان العاشق يناجي الشاعر فلسطين، بعد أن شفه الوجد، وطال به الشوق:

يا فلسطين يا ربا المسجد الأقـ
ـصى حنيني إلى رباك شديد
أنتِ حق الإسلام، لؤلؤة الإيـ
ـمان، حق على الزمان أكيد
أنتِ للمسلمين ذروة مجد..
جمع المجد: طارف وتليدُ
ما عرفناك غير ساح جهاد
دار فيها ملاحم وجدود
أشرقت بالهدى رباك وماج
النور فيها، وأشرق التوحيد

ويسخر الشاعر في مرارة من العرب إذ جعلوا آلياتهم وعدتهم في مواجهة اليهود الصراخ المحموم، والمؤتمرات والتصفيق أمام نار العدو حديدهم وسلاحهم الحديث، ولا طريق للخلاص والتحرير وتحقيق النصر إلا الجهاد العملي الحق الذي يتطلب تكثيف الجهود، ووحدة الصف، واستشعار العزة والإباء، والحرص على التضحية والفداء، وكل هذه القيم:

عزمات تبني النفوس ويحيـ
ـها الكتابُ المجيدُ والتوحيد
وأعدوا بما استطعتم رباطا
من قوى ترهب العدا وتسود
واتقوا الله في الميادين ينزل
نصره الحق جل والتأييد
إن تولوا يستبدل الله قوما
غيركم لا تضيع فيهم عهود

***

ثم ينطلق عدنان النحوي من مأساة «الدرة» إلى معاناة مأساة الشعب والأرض والطفولة بالجهاد الصادق حتى يتحقق النصر المبين.

(*) مجلة القدس: العدد ٣١، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ/يوليو ٢٠٠١م.